الفصل الأول

مفهوم تعليم الكبار وتطوره (*)

مفهوم تعليم الكبار :

مع أن الممارسة العملية لتعليم الكبار قديمة فان الاستخدام العلمى لهذا المصطلح قد شاع بعد الحرب العالمية الأولى عندما بدأ الاهتمام بتعريف هذا الميدان وتحديد مجالاته وانشطته . كما بدأ يجتذب الباحثين اليه ليسبروا اغواره ويتعمقوا فى فهمه . ولعل من اهم المجالات الأولى التى استهوت الباحثين فى هذا الميدان ما يتعلق بمعرفة قدرة الكبار على التعلم . لقمن المعروف أن هناك ما يشبه الاعتقاد بين الناس وان كان خاطئا أن التعليم فى الكبر كالنقش على الماء اى لا يؤتى اية ثمرة والمثل يقول « بعد ما شاب راح الكتاب » . ومن هنا كانت النظرة الى أن تعليم الكبار لا جدوى من ورائه . وقد تعززت هذه النظرة بعوامل اخرى ربما كان فى مقدمتها قصور الجهود التى بذلت فى هذا الميدان عن تحقيق اهدافها . وعلى كل حال فقد جاءت نتائج البحوث التى اجريت على « قدرة الكبار على التعليم » الى نتائج دامغة تثبت قدرة الكبار على التعليم . ولعل من اوائل البحوث التى عملت فى هذا الميدان ما قام به ادوارد لى ثورندايك الامريكى « ١٨٧٤ ـ ١٩٤٩ » وكان من اهم النتائج التى توصل اليها ان الكبير قادر على التعلم بل ان نمو القدرة على التعلم يرتفع ليصل الى اعلى نقطة له عند سن العشرين ويظل ثابتا عند هذه النقطة لعدة سنوات من العمر فيما بعد يأخذ بعدها فى الانخفاض البطىء الذى ربما يصل الى واحد فى المائة كل عام . وقد توالت البحوث وتعددت لتشمل جوانب مختلفة من تعليم الكبار منها ما يتعلق باهتمامات الكبار وميولهم وخصائصهم النفسية وطرق تعليمهم واساليب التعامل معهم والمواد التعليمية التى تقدم لهم واحتياجاتهم الثقافية والتربوية كما اتسعت الدراسات لتشمل مجالات العمل فى تعليم الكبار وادارتها وتنظيمها وتمويلها واعداد معلميها واستخدام الأساليب التعليمية الحديثة . وهكذا اخذ هذا الميدان يتسع ليشمل العديد من الناس من مختلف التخصصات وفى مختلف مواقع العمل ، ومع اتساع الميدان برزت اهمية تحديد الميدان وبدا الكثير يتساءلون ماذا يقصد بتعليم الكبار ؟ وربما عزز هذا التساؤل ما دخل ميدان التربية فى السنوات الأخيرة من مصطلحات تتصل اتصالا وثيقا ومباشرا بتعليم الكبار مثل التعليم المستمر أو التعليم الممتد او التعليم مدى الحياة . ترى هل هذه المفاهيم تعنى شيئا غير تعليم الكبار ام انها مرادفة له ؟ واذا كانت الأولى فماذا يقصد بها واذا كانت الثانية فما الداعى اليها .. والحقيقة ان مشكلة التعريفات واردة بين المشتغلين بالعلم اى

---

* للدكتور محمد منير مرسى .

علم وتبرز هذه المشكلة بصفة خاصة لدى المشتغلين بالعمل التربوى فى مجالاته المختلفة .. ان نظرة واحدة الى هذه المفاهيم جميعا توضح لنا انها تتفق جميعا فى نظرتها الى التربية والتعليم على انها عملية مستمرة مدى الحياة اى انها تمتد من المهد الى اللحد . وهى فكرة فى جوهرها ليست جديدة فالتربية الاسلامية نسلم بها من قديم العصور ولكن الجديد هو هذه المصطلحات التى ان دلت على شىء فانها تدل على انها اخرجت القديم فى ثوب جديد . ان تعليم الكبار يقوم فى اساسه على فكرة التربية المستمرة والتعليم الممتد والتعليم مدى الحياة .

ويعرف تعليم الكبار فى الولايات المتحدة الأمريكية بأنه المستوى التعليمى الرابع الذى يتميز من المستوى التعليمى الأول « الابتدائى » والثانى « الثانوى » والثالث « العالى والجامعى » . وهكذا نجد انه ينظر الى تعليم الكبار هناك على أنه تعليم متميز بذاته تفرضه الحاجة المستمرة المتجددة مدى الحياة . والتعريف الرسمى لتعليم الكبار فى بريطانيا « بأنه كل انواع التعليم غير المهنى لمن تزيد أعمارهم عن ١٨ سنة وتقوم بتقديمه جهات مسئولة تحت اشراف السلطة التعليمية » . وهذا يعنى شمول تعليم الكبار للمجالات الثقيفية والترويحية المختلفة كما يعنى ايضا التربية المستمرة مدى الحياة وهو معنى تأكد منذ المؤتمر الثانى لتعليم الكبار الذى عقد بكندا سنة ١٩٦٠ .

وينظر الى تعليم الكبار بصفة عامة على انه التعليم الهادف المنظم الذى يقدم للبالغين أو الراشدين او الكبار غير المقيدين فى مدارس نظامية من أجل تنمية معارفهم ومهاراتهم أو تغيير اتجاهاتهم وبناء شخصياتهم . وهذه النظرة تجعل من ميدان تعليم الكبار ميدانا واسعا عريضا يشمل قطاعات مختلفة من البشر فى مختلف مجالات العمل والانتاج كما انها ايضا تجعل من ميدان تعليم الكبار ميدانا متجددا يقوم فى أساسه على فكرة التربية لعالم متغير ومن ثم لا يمكن ان ينظر اليه على انه تعليم منته بسن معينة او برامج معينة أو سنوات دراسية معينة وهى نظرة لا يختلف عليها فى الواقع احد المشتغلين بتعليم الكبار فى الفترة الراهنة .

واذا كان تعليم الكبار كما عرضنا تتسع مفاهيمه وتتعدد مجالاته وبرامجه وانشطته فانه غالبا ما ينصب بصورة رئيسية فى الدول النامية على محو الأمية باعتبارها مشكلة رئيسية تواجه هذه الدول ومن ثم ينبغى التغلب عليها . ومحو الأمية بالطبع هو احد مجالات العمل فى تعليم الكبار فهذا المفهوم الأخير أعم واشمل من المفهوم الأول وصلة بعضها ببعض هى صلة العام بالخاص . ومع هذا فقد يطلق تعليم الكبار على محو الامية حتى فى المحافل الدولية .

تطور تعليم الكبار :

شهد ميدان تعليم الكبار فى السنوات الاخيرة عدة تطورات هامة ادت بصورة مباشرة الى تعميق جوانبه واتساعها وشمولها . ومازالت الجهود تتوالى من اجل توسيع نظرتنا الى هذا الميدان وتحسين استخدامنا له وتطوير اساليب عملنا فيه . ومن الاتجاهات الواضحة المتميزة التى بدات تفرض نفسها بالحاح على المشتغلين بالعمل التربوى الاعتراف بالأهمية الحيوية لتعليم الكبار وانه لا يمكن ان ينظر اليه على انه اقل حيوية من تعليم الصغار . بل ان اهمية تعليم الكبار كميدان تربوى لا تقتصر على دول معينة من مستوى اقتصادى واجتماعى معين وانما تنسحب اهميته على دول العالم المعاصر على اختلاف شاكلتها المتقدمة منها والنامية على السواء .

وكان ظهور منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) عاملاهاما على الانتقال بتعليم الكبار من المستوى المحلى الى المستوى العالمى واخذت منذ انشائها تبدى اهتماما متزايدا بهذا الميدان لا سيما ما يتعلق بمحو الامية . وكان لهذه المنظمة الفضل الكبير فى انها هزت الضمير العالمى والانسانى عندما كشفت نتائج الدراسات التى قامت بها ان ما يزيد عن نصف سكان العالم الكبار اميون . وقد قامت بعقد اول مؤتمر دولى لتعليم الكبار فى الدانمرك سنة ١٩٤٩ عندما كان العالم يسترد انفاسه بعد انتصار الديمقراطية فى الحرب العالمية الثانية . وقد شكل هذا المؤتمر بداية مرحلة هامة لتحديد اهداف تعليم الكبار ومجالاته كما حث على اهمية التعاون الدولى فى هذا الميدان .

وفى عام ١٩٦٠ عقد المؤتمر الدولى الثانى لتعليم الكبار بمدينة منتريال بكندا اى بعد حوالى عشر سنوات من المؤتمر الأول شهد خلالها العالم تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة لاعادة بناء ما دمرته الحرب ووضع دعائم التنمية القومية الشاملة كما شهد العالم العربى بداية اليقظة القومية والتحرر من سيطرة الاستعمار وقد ارسى مؤتمر مونتريال دعائم التوسع المطرد فى خدمات تعليم الكبار فى الستينات واسهم اسهاما كبيرا فى انشاء مؤسسات تعليم الكبار واعداد القوى البشرية اللازمة والمجالس والهيئات التنسيقية فى كثير من الدول . وقد ساعد كذلك على بلورة كثير من الاتجاهات الهامة فى تعليم الكبار التى اشرنا اليها فى اول كلامنا . وكان من بين الاسهامات الكبرى له ايضا كسب التاييد للتعليم المستمر مدى الحياة واعتبار التعليم نشاطا مستمرا يترتب عليه آثار بعيدة المدى تتطلب اعادة النظر فى وظيفة التعليم المدرسى والتعليم الجامعى باشكالهما التقليدية . وقد مهد هذا المؤتمر ايضا السبيل لنشوء مفاهيم ومناهج وطرق جديدة ومبتكرة للعمل فى محو الأمية ادت الى مفهوم محو

الأمية الوظيفى الذى برز بصورة واضحة فى المؤتمر العالمى لمحو الأمية الذى عقد فى طهران سنة ١٩٦٥ كما ادى ايضا الى التركيز على التعلم الذاتى وتطوير تعليم الكبار كميدان اكاديمى للدراسة وانتشار المراكز الثقافية والتربوية والاجتماعية الهادفة والمراكز التى يقيم فيها الدارسون بما فى ذلك مراكز تدريب الفلاحين وسكان الريف وتزايد مشاركة الحكومات فى برامج تعليم الكبار وتمويلها وادارتها وتزايد التعاون الدولى بين الأمم من خلال المنظمات الدولية أو الاقليمية أو الاتفاقات الثنائية والمتعددة الأطراف .

ومع أن هذا المؤتمر قد اكد على أن تعليم الكبار يشكل كلا متكاملا فانه اعتبر محو الأمية اهم الجوانب التى تشكل هذا الكل واكثرها خطورة .

ومن خلال جهود اليونسكو فى هذه المؤتمرات العالمية وما قامت به من تجارب وما تقدمه للدول من مساعدات مادية وبشرية وما تصدره من مطبوعات برز الاهتمام العالمى بتعليم الكبار لا سيما محو الأمية الذى خصصت له حملة عالمية عرفت بالبرنامج التجريبى العالمى لمحو الأمية الذى شمل من البلاد العربية الجزائر والسودان .

ومن بين التطورات الهامة ايضا فى ميدان تعليم الكبار انتقاله من الجهود الفردية والتطوعية والشعبية المبعثرة الى الجهود المنظمة من جانب الحكومات وهى نقطة تحول هامة فى ميدان محو الأمية بالذات لأنه جعل البيئات والحكومات تحس بمسئوليتها نحوه وترصد له الأموال وتسن القوانين والتشريعات وتضع له الخطط والبرامج وتعد له الامكانيات البشرية والمادية .

وهناك ايضا تطور هام بالنسبة لمشكلة الأمية فقد كانت النظرة التقليدية انها وصمة اجتماعية وعار قومى وكان التحول الذى حدث هو اعتبارها عقبة كئودا فى سبيل التقدم الاقتصادى والاجتماعى . وقد جاء هذا التحول نتيجة لنمو المفاهيم الديمقراطية واعتبار التعليم حقا من حقوق الانسان الاساسية فقد اصبح التعليم ضرورة من ضرورات الحياة وأساسا هاما من الأسس الثقافية والحضارية فى المجتمعات الحديثة . كما كان ذلك ايضا نتيجة الاهتمام بدراسة العلاقة بين التعليم والاقتصاد ودور التعليم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وهناك تحول آخر هام فى ميدان تعليم الكبار لا سيما فى ارتباطه بمحو الأمية على المستوى العالمى والعربى على السواء فقد ارتبط تعليم الكبار منذ منتصف القرن العشرين بفكرة التربية الاساسية وانشىء مركز يحمل هذا الاسم فى سرس الليان احدى قرى محافظة المنوفية بمصر عام ١٩٥٢ تحت

اشراف اليونسكو وبعد اقلّ من عقد من الزمان تطورت فكرة التربية الاساسية الى تنمية المجتمع وظل محو الامية جزءا رئيسيا فيها ثم تحولت التنمية الاجتماعية الى محو الامية الوظيفى منذ عام ١٩٦٩ وربما يكون الاوان قد آن لتطور آخر من نوع جديد وهنا يجب ان نقف وقفة قصيرة لتناول مفهوم محو الامية بجانبيه العام والوظيفى . ويقصد بمحو الامية فى معناه العام محو امية الكبار بحيث يصبحون قادرين على ممارسة مهارات الاتصال وعلى درجة من الثقافة العامة تمكنهم من المشاركة الواعية فى مجتمعهم . أما محو الامية الوظيفى فلعل كلمة « الوظيفة » هى اكثر كلماته خداعا لما لها من تأثير فى النفس فمن منا يكره الوظيفية او ينكرها ولذلك كان لهذا المصطلح فعل السحر فى النفوس عندما ظهر لاول مرة فى الاوساط الدولية .

فمحو الامية الوظيفى كما اشرنا مهد له المؤتمر الدولى الثانى لتعليم الكبار الذى عقد فى كندا سنة ١٩٦٠ كما برز خلال المؤتمر العالمى لمحو الامية لوزير التربية والتعليم الذى عقد فى طهران سنة ١٩٦٥ ليدلّ على منهج فى محو الامية مرتبط بالتدريب الاقتصادى والمهنى . فهو محو امية موجه نحو العملُ WORK ORieNTeOL ومع ان هذا المؤتمر الاخير هو الذى اقر مفهوم محو الامية الوظيفى فان الجانب الوظيفى فى التعليم لم يكن من اختراع مؤتمر طهران . فقد نادى المربون عبر العصور المختلفة وساندهم فى ذلك اصحاب النظريات التربوية بضرورة ربط التعليم بالحياة بحيث يصبح جزءا عضويا منها ؛ ويكون التعليم وظيفيا بقدر قدرته على توظيف نفسه فى خدمة مجتمعه وحل مشكلاته والتكيف المستمر لمتطلباته المتجددة المتغيرة . وهذه هى نفس الفكرة التى يقوم عليها محو الامية الوظيفى . اذ يقصد به توظيف محو الامية فى خدمة التنمية وربط محتوى محو الامية بمناشط العمل . ويلاحظ على محو الامية الوظيفى بهذا المعنى الذى يمثل الجانب المتطرف انه موجه الى قطاعات معينة من الاميين فى مواقع العمل والانتاج وانه انتقائى ويرتبط بالاولويات التى تتطلبها خطة التنمية وانه يجعل من تعلم مهارات الاتصال وسيلة لاتقان مهارات العمل والارتفاع بمستواه وانه يثقل على المتعلم باضافة عبء جديد فى التعليم هو ما يتعلقُ بتعلم المضمون والمحتوى يضاف الى ذلك انه مكلف من الناحية الماديةويتطلب زيادة كبيرة فى الوقت والجهد ودونه صعوبات عملية كثيرة . واخيرا فانه ينظر الى المتعلم الكبير على انه مجرد « ترس » فى عجلة الانتاج دون اهتمام كبير بحاجاته الثقافية والانسانية والاجتماعية التى كانت تتوفر له فى ظل المفهوم الذى يسمى بالتقليدى فى محو الأمية . ولذلك نجد ان فكرة التعليم الوظيفى فى البلاد العربية سرعان ما هبط التحمس لها بهذا المعنى وشهدت مؤتمرات تعليم الكبار ومحو الامية وما زالت تشهد احتدام الخلاف حولُ محو الأمية الوظيفى بهذا المعنى . وقد ترتب على ذلك تقهقر محو الامية الوظيفى بمعناه المتطرف الموجه نحو العمل فقط ليفسح صدره للمجالات الاخرى التى تتعلقُ بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية بأبعادها المختلفة .